٢ - احترام آرائهم :

يرى الإسلام أبناءه تربية تضمن لهم الحياة الكريمة وتنمى شخصياتهم بطريقة تؤهلهم للقيام بواجبهم نحو بناء المجتمع الذى ينشده الإسلام ، فكل فرد فى هذا المجتمع مسئول عن ثغرة من ثغرات المجتمع الذى يعيش فيه ، ومن واجبه أن يؤدى هذا الدور بكل جدارة فإن قصر أو تخاذل فهو محاسب على ذلك بين يدى الله - تعالى - يوم لا ينفع مال ولا بنون .

لم يكن هذا الكلام نظريا كما نسمعه الآن فى كل مكان ، ولكنه كان واقعا عاشه المسلمون ، وتعاملوا به فيما بينهم ، ولكى يكون ذلك واقعا عمليا منح الإسلام كل فرد من أبنائه عوامل تمكنه من القيام بتلك المهمة التى لا يستقيم حال الأمم إلا بها .

إن الإسلام وهو يكون دولته لم يرد من أتباعه أن يكونوا صورا متحركة يميلون حيث يشار إليهم بالميل ، ويوافقون حيث يراد منهم الموافقة ، ويمتنعون حين لا يكون المسئول موافقا ، ولكنه يريد منهم أن يكون كل شخص منهم حارسا أمينا على نظام الدولة ، يرعاه من الطغاة ويحميه من الانتهازيين ، ويدفع عنه من يحاول تحويل مسيرته عن خطها المستقيم .

وذلك لأن الإمعات الذين يفعلون ما يفعله الناس ، ويكون كل واحد منهم نسخة مما يريده الحكام هؤلاء لا يستحقون الحياة لأنهم وضعوا أنفسهم بأنفسهم مع الببغاوات التى تردد ما تسمع دون أن تعى منه شيئا ، وتحاكى ما يفعل أمامها من غير أن يكون له مدلول معين عندها .

وهؤلاء الإمعات هم الذين يستمد منهم الطغاة طغيانهم ، وهم الذين يمكنون المستبدين من التمادى فى استبدادهم ، وهم فى النهاية معاول الهدم

فى مقومات الأمم وحضارتها ، ولهذا جاء فى الأثر : « لا يكن أحدكم إمعة يقول : أنا مع الناس ، إن أحسنوا أحسنت ، وإن أساءوا أسأت ولكن وطنوا أنفسكم إذا أحسن الناس أن تحسنوا ، وإن أساءوا أن تتجنبوا إساءتهم » .

وفى حديث ابن مسعود – رضى الله عنه – : « لا يكونن أحدكم إمعة ، قالوا : وما الإمعة ؟ قال : الذى يقول أنا مع الناس »[1] .

والإمعة هو الشخص الذى لا رأى له ، يسير خلف كل ناعق ، ولا يعرف إلا ما يقوله الناس ، وهؤلاء الإمعات ، لا أثر لهم فى المجتمع الذى يعيشون فيه ، حيث يعيشون أذنابا يتأثرون ولا يؤثرون ، والإسلام لا يقبل من أحد أن يكون هكذا ، حتى فى أحرج المواقف وأشدها ضيقا .

إن المسلمين قد تربوا على أن الأمور كلها بيد الله ، وأن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، وأن أهم ما يحرص عليه الإنسان لا يملك أحد من الخلق مهما كانت منزلته أن يتصرف فيه ، وأن الرزق والأجل اللذان من أجلهما يذل الإنسان نفسه ويطأطىء رأسه ليس لمخلوق عليهما أو على أحدهما سبيل ، فالرزق مقسوم للمرء وهو لا يزال فى بطن أمه ، والأجل موقوت عند الله وصاحبه لم يخرج بعد إلى الحياة .

الله – جلا وعلا – يضمن للناس جميعا مسلمهم وكافرهم أرزاقهم وقد أقسم – سبحانه – على أن ذلك حق لا مراء فيه ، قال – تعالى – : ﴿ وفى السماء رزقكم وما توعدون ، فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون ﴾[2] .

والله – سبحانه – قد حدد للناس آجالهم ، فلا تقديم ولا تأخير ولا شفاعة ولا محاباة ، يقول – جل شأنه – : ﴿ فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾[3] .

---

(١) النهاية لابن الأثير : ٦٧/١ .

(٢) سورة الذاريات : الآية ٢٢ ، ٢٣ .

(٣) سورة النحل : الآية ٦١ .

وإذا كان الأمر كذلك فعلام يخاف الإنسان ؟ ولماذا يجبن عن قولة الحق ؟ وبماذا يجيب إذا سئل وهو بين يدى الله عن سكوته على الباطل ؟؟

بهذا الأسلوب الحكيم ، وبهذه التربية الروحية العالية ، رفع الإسلام معنويات المسلمين ، فنشأوا على العزة فلا يذلون أنفسهم إلا لله ثم لإخوانهم المسلمين ، وتربوا على الكرامة فلا يخضعون إلا للحق ، وخافوا الله وحده فلا يهابون ظالما ولا جباراً عنيداً .

ولكى يؤكد الإسلام هذا المعنى فى نفوس المسلمين ، ويغرسه فى قلوبهم منح كل فرد منهم حق النقد الصريح البناء ، والواقع الذى لا مراء فيه أن المسلمين قد استعملوا حق النقد فى البناء والإصلاح ، ولم يتخذوه وسيلة للهدم والتعويق ، ذلك لأن المسلم عندما ينتقد لا يريد إلا إزالة أمر يخاف على المسلمين عاقبته ، أو إعادة حق يجب على المسلمين التمسك به ، والنقد من هذا النوع هو النقد البناء الذى تجنى الأمة من ورائه النفع الكثير والخير العميم .

وعندما منح الإسلام لكل مسلم حق النقد أوجب على المسئولين فى الأمة الاستماع له ، والأخذ به مادام يحق حقا أو يبطل باطلا وتلك هى الضمانات الحقيقية ليأتى النقد ثمرته ، ويحقق غايته .

أما أن يمنح الفرد حق النقد ، وتطلق حرية المسئولين فى عدم الأخذ به ولو كان حقا فذلك تلاعب يتنافى مع جدية الإسلام ، ووضع قواعد التشريع التى تضمن سلامة البناء فى المجتمع ، وما قيمة النقد إذا لم يجد أذنا صاغية تعيه ، وقلبا متفتحا يؤمن به ، ويداً قوية تدافع عنه وتحميه إن النقد الصريح البناء إذا لم يجد ذلك يكون نوعا من وسائل استنفاد طاقات الناس ، وحيلة من الحيل التى يكتشف بها المعارضون حتى يتمكن المسئولون من الأخذ بحلاقيمهم إذا أرادوا ذلك .

والإسلام يطلب منا أن نكون أقوياء عند المطالبة بالحق ، وأن نكون أعزة أمام ذوى السلطان لا نهن ، ولا نستكين ، يقول الرسول ﷺ : « اطلبوا

الحوائج بعزة النفس ، فإن الأمور تجرى بالمقادير »[1] .

وأمير المؤمنين عمر – رضوان الله عليه – كان يقول : « لا خير فيكم إذا لم تقولوها ، – أى كلمة الحق – ولا خير فينا إذا لم نسمعها » .

وكان – رضى الله عنه – يؤكد هذا المعنى فى خطبه ، ويرددهاعلى أسماع المسلمين ، ويطالبهم بها ليجرئهم على قول الحق ، ويفتح لهم باب النقد البناء ، ليعرف من أمره ما خفى عليه ، ويقف على أحوال المسلمين التى لم تبلغه ، ومن كلامه فى ذلك قوله : « فاتقوا الله عباد الله ، وأعينونى على أنفسكم بكفها عنى ، وأعينونى على نفسى بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وإحضار النصيحة فيما ولانى الله من أمركم »[2] .

بهذه النصوص فتح عمر باب النقد أمام المسلمين ، ليبصروه بخطئه إذا أخطأ ، ويعينوه على الحق إذا لم يتبينه ، وقد فهم المسلمون من ذلك أنهم مطالبون بالنصيحة ، وأنهم إذا أهملوها سيسألون عنها بين يدى الله – عز وجل – .

والرسول ﷺ يقول : « الدين النصيحة ، قلنا لمن يا رسول الله ، قال ﷺ : لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم »[3] .

فهم المسلمون ذلك ووعوه ، وأدوا واجبهم نحوه من غير مجاملة ولا محاباة ، روى المؤرخون أن عمر – رضى الله عنه – جاءته برود من اليمن –ثياب – ففرقها على المسلمين كل رجل منهم بردا . ثم صعد المنبر يخطب ، ورأى المسلمون عليه بردين ، فلما قال : اسمعوا رحمكم الله .

قام إليه سلمان الفارسى فقال : والله لا نسمع ، والله لا نسمع .

فقال عمر : ولِمَ يا أبا عبد الله ؟

---

(١) الجامع الصغير : ٤٤/١ .
(٢) أخبار عمر : ص ٥٦ .
(٣) رواه مسلم .

قال : يا عمر ! تفضلت علينا ، فرَّقت علينا بردا بردا ، وخرجت تخطب فى حلة منها – أى بردين – .

قال عمر : أين عبد الله بن عمر ؟

فقال : ها أنذا يا أمير المؤمنين !

قال عمر : لمن أحد هذين البردين اللذين علىَّ ؟

قال : لى .

فقال عمر لسلمان : عجلت على يا أبا عبد الله ، إنى كنت قد غسلت ثوبى الخلق ، فاستعرت ثوب عبد الله .

قال سلمان : أما الآن فقل نسمع ونطيع[1] .

نحن نلاحظ فى هذا جرأة فى النقد من أحد المسلمين ، كما نلاحظ سعة صدر أمير المؤمنين ، حيث لم يضق بهذا النقد ، ولم يحرمه على الناس ، بل أثبت للحاضرين جميعا براءته مما اتهم به ، وبين عذره فى لبس ثوب ولده عبد الله ، وحتى بعد أن ثبتت براءته ، ووافق الحاضرون على معذرته لم يعنف الناقد ، ولم يقل له شيئا يكرهه ليظل باب النقد مفتوحا ، ولا يرهب المسلمون من أن يوجهوا النقد ويقولوا كلمة الحق لأى إنسان كائنا من كان .

وإنه ليلفت نظرى فى هذا المقام إلحاح عمر – رضى الله عنه – على المسلمين أن يسددوه إذا أخطأ ، ويقوموه إذا إعوج ، ويعينوه على نفسه بإسداء النصح والتوجيه ، وذلك مالم نلاحظه فى عهد الخلفاء .

نعم ، لقد كان كل خليفة حريصا على ذلك ، عاملا به ، متقبلا له ولكنا لم نلاحظ أن أحداً منهم ألح فى هذا الأمر إلحاح عمر ، ولا طلبه باستمرار ممن حوله كما كان يطلبه عمر ، ولعل ذلك راجع إلى حرص عمر على تحقيق أكبر قدر ممكن من العدالة بين الرعية كما اشتهر عنه ، ولعله كان يعلم فى نفسه حدة وغلظة

---

(١) أخبار عمر : ص ١٦١ .

فخاف أن يهابه المسلمون فكان يلح عليهم فى ذلك ليعطيهم قدرا من الثقة والاطمئنان ليتمكنوا من أداء واجبهم .

ولعله كان يشعر – وهو الأرجح عندى – أنه كان قد ركز السلطة كلها فى يده حتى كان كل أمير لا يتصرف إلا بإذنه ، ولا يعمل عملا حتى يوافق عليه ، وهو ما يسمى فى العصر الحديث بالحكومة المركزية ، ولا شك أن للحكومة المركزية مساليها وعيوبها ، ولا شك أن عمر كان يدرك ذلك ، فدفعه حرصه على التصحيح والتقويم على أن يلح على من حوله فى تقويمه إذا أعوج ونصحه إذا حاد .

نعم ، إن حكومة عمر – رضى الله عنه – كانت حكومة مركزية بكل ما تحتمله الكلمة من المعانى ، ولكنها بفضل الله – تعالى – ثم بفضل قوته الذاتية ، وعبقريته فى الإدارة والحكم لم تكن فيها مثالب الحكومات المركزية المعروفة الآن ، فلم تتعطل مصالح العامة ، ولم يكن (الروتين) معوقا من المعوقات ، بل لم يكن استئثاره بالسلطة مصدر اضطراب للنظام ، ولكنه كان عاملا مهما من عوامل البت السريع فى القضايا وفى الأمور التى كانت تحتاج إلى حلول قوية وسريعة .

ونحن هنا لا نؤيد الحكومة المركزية ، ولا نقول إن الإسلام قد أقرها فى عهد عمر فلا مانع من اتخاذها نظاما تسير عليه الدولة ، ولكننا نقول إن نجاحها فى عهد عمر – رضى الله عنه – كان مرتبطا ارتباطا واقعيا بشخصية عمر ومن لنا بمثل عمر الآن حتى نلقى إليه بمقاليد الأمور ونحن مطمئنون إلى نجاحه وتوفيقه فى كل ما يقوم به .

ولا يتنافى كون حكومة عمر – رضى الله عنه – كانت حكومة مركزية مع مبدأ الشورى الذى هو أساس نظام الحكومة فى الإسلام ، فالمركزية هى تركيز السلطة فى جهة واحدة سواء كانت فردا أم مجموعة ، وذلك لا يتعارض مع استشارة الآخرين ، بل ولا يتنافى مع الأخذ بآرائهم .

ولقد كان عمر – رضى الله عنه – أكثر الناس فى استشارة أصحابه فيما يعن له من الأمور التى ليس فيها نص ، ولم يسبقه فيها أبو بكر – رضى الله عنه – برأى .

ونحن نرى ذلك فى تقسيم أرض السواد فقد استشار المهاجرين ثم استشار الأنصار فلما اختلفوا عليه استشار مشيخة قريش من مسلمى الفتح .

وكذلك فعل فى حادثة طاعون عمواس ، فإنه – رضى الله عنه – سار بالناس نحو الشام حتى نزل بسَرغ ، وهناك لقيه قواد الجيش – أبو عبيدة ويزيد وشرحبيل – فأخبروه خبر الطاعون ، وقالوا له : إن الأرض سقيمة .

فقال عمر : اجمع إلى المهاجرين الأولين .

قال : فجمعتهم له ، فاستشارهم ، فاختلفوا عليه .

فمنهم القائل : خرجت لوجه تريد فيه الله وما عنده ، ولا نرى أن يصدك عنه بلاء عَرض لك .

ومنهم القائل : إنه لبلاء وفناء ما نرى أن تقدم عليه .

فلما اختلفوا عليه قال : قوموا عنى .

ثم قال : اجمع لى مهاجرة الأنصار ، فجمعتهم له ، فاستشارهم فسلكوا طريق المهاجرين ، فكأنما سمعوا ما قالوا فقالوا مثلهم .

فلما اختلفوا عليه قال : قوموا عنى .

ثم قال : اجمع لى مهاجرة الفتح من قريش ، فجمعتهم له فاستشارهم فلم يختلف عليه منهم اثنان .

وقالوا : ارجع بالناس ، فإنه بلاء وفناء .

فقال لى : يا ابن عباس ، اصرخ فى الناس فقل : إن أمير المؤمنين يقول لكم إنى مصبح على ظهر ، فأصبحوا عليه .

قال : فأصبح عمر على ظهر ، وأصبح الناس عليه[1] .

هكذا كان عمر – رضى الله عنه – فى كل أحواله يستشير ، ولا يقطع أمراً برأيه دون أن يستبينه من أهل الرأى فيه .

---

(١) الطبرى : ٥٧/٤ .

ولقد بلغ حرصه على تشجيع المسلمين على إبداء رأيهم مبلغا لم يعرف قط عن حاكم قبل عمر ولا بعده ، وإن كان ليسأل أصحابه عن رأيهم فيه ، وماذا سيفعلون لو رأوه حاد عن الحق ، ومال عن الطريق السوى ؟

سأل سلمان مرة فقال له : أملك أنا أم خليفة ؟

فقال له سلمان : إن أنت جبيت من أرض المسلمين درهما أو أقل أو أكثر ، ثم وضعته فى غير حقه ، فأنت ملك غير خليفة ، فاستعبر عمر[1] .

وقال عمر لحذيفة : ناشدتك الله ، وبحق الولايات عليك ، كيف ترانى ؟

قال حذيفة : ما علمت إلا خيرا .

فناشده بالله فقال : إن أخذت مال الله فقسمته فى ذات الله فأنت أنت ، وإلا فلا .

قال عمر : والله إن الله ليعلم ما آخذ إلا حصتى ، ولا أكل إلا وجبتى ولا ألبس إلا حلتى[2] .

وإننا لنجد عمر – رضى الله عنه – يتقبل رأى سلمان ورأى حذيفة فيه من غير أن يكون له وثبة ، أو يضيق بمقالتهما ، وإننالنرى أن سلمان وحذيفة – رضى الله عنهما – لم يداهنا حين سألهما الخليفة ، ولم يثنيا عليه مع أنه أهل لهذا الثناء ، ولكنهما وضعا له الميزان الذى يقيس به أعماله ، و يتبين من خلاله إن كان خليفة عادلا أم ملكا جائرا .

وهما بهذه الإجابة الصريحة التى لا تنطوى على مجاملة ، ولاتنم عن محاباة قد بينا للمسلمين كيف يكونون صرحاء مع الخلفاء وكل من يتولى أمراً من أمورهم .

إن الحكام عادة يسألون هذه الأسئلة ليسمعوا الثناء العطر ، والمديح الذى يثلج صدورهم ، ويزيدهم غرورا فوق ما هم فيه ، ولكن عمر ليس من هؤلاء

---

(١) الطبرى : ٤/٢١١ .

(٢) أخبار عمر : ص ٣٢٦ .

ولو كان منهم لما رضى بهذه الإجابة فيبكى من قول سلمان ، ويشهد الله على أنه يضع المال فى موضعه حين أجابه حذيفة .

وقف عمر يوما على المنبر وقال : لا تزيدوا مهور النساء على أربعين أوقية وإن كانت بنت ذى القصة – يعنى يزيد بن الحصين الحارثى – فمن زاد ألقيت الزيادة فى بيت المال .

فقالت امرأة من صف النساء ، طويلة فى أنفها فطس : ما ذاك لك .

قال عمر : ولم ؟

قالت : لأن الله ــ تعالى ــ يقول : ﴿ وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا ، أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا ﴾[1].

فقال عمر – رضوان الله عليه – : امرأة أصابت ، ورجل أخطأ[2] .

وهنا نرى أن عمر قد احترم رأى المرأة ، وتقبله بطيب خاطر ، لأن الإسلام يفرض على و لاة الأمر ألا يضيقوا برأى مادام حقا ، ولو كان رأى امرأة لأن الإسلام يعتبر المرأة شريكة فى بناء المجتمع ، ومنحها كما منح الرجال حق النقد وإبداء الرأى .

ولم يقف عمر عند تقبل النقد والرضى به ، ولكنه تجاوز ذلك إلى التراجع عن رأيه هو حينما ذكرته بقول الله – تعالى – فقال : « اللهم اغفر ، كل إنسان أفقه من عمر »

ثم رجع فصعد المنبر وقال : أيها الناس إنى كنت نهيتكم أن تزيدوا النساء فى صدقاتهن على أربعمائة درهم (أربعين أوقية) فمن شاء أن يعطى من ماله ما أحب ، وطابت به نفسه فليفعل[3] .

لقد كان عمر يرى أن زيادة المهور ليست مكرمة يتفوق بها الإنسان على

---

(١) سورة النساء : الآية ٢٠ .
(٢) مناقب عمر : ص ١٤٩ .
(٣) نفسه : ص ١٥٠ .

غيره وإلا لكان رسول الله ﷺ أولى بذلك من غيره ، ومادام لم يزد ﷺ على ذلك فهذا هو الأولى بالاتباع ، وكان من حق عمر أن يظل على رأيه كمجتهد وجد فى فعل رسول الله ﷺ قدوة يلزم بها المسلمين ولكن قول الله – تعالى – أولى بالاتباع ، ولاسيما أن الرسول ﷺ لم ينه عن زيادة الصدقات ، وترك الناس حسبما يتفقون عليه فى المهور .

إن تراجع عمر عن رأيه ، واستغفاره الله – عز وجل – عما بدر منه ، وقوله : « كل إنسان أفقه من عمر » ، دليل قاطع على احترام رأى المرأة ، وتقبل النقد مهما كان مصدره .

وإنه ليلفت نظرنا هنا ما حدث من عمر نفسه مع امرأته ، حينما تدخلت فى أمر حدث بين عمر وأحد ولاته ، فأرادت أن تعرف سبب غضبه عليه فرفض عمر منها ذلك ، ولم يدعها تتدخل فى أمور ليست مما تدخل النساء فيه[1] .

فعمر يسمع من المرأة ويحترم رأيها ، ويتراجع عن رأيه ، وينزل على رأيها وهو هو الذى يرفض أن تتدخل امرأته بينه وبين بعض عماله .

لا شك أن امرأة عمر أقرب إلى نفسه من أية امرأة أخرى ، وكان المنتظر من عمر – رضى الله عنه – أن يكون حفيا برأى زوجته ، مصغيا لما تقول ولكننا وجدنا هناك عكس ذلك تماما ، ولا نستطيع أن نجد لذلك علة إلا أن عمر خاف إن هو أصغى إلى تدخل امرأته فى مثل ذلك الأمر أن يتخذ الناس تدخل زوجاتهم وسيلة إلى الوصول إلى ما يريدون ، فسد عمر ذلك الباب ، وأغلقه بإحكام فى وجوه أولئك الذين تسول لهم أنفسهم أن يأتوا إليه عن هذا الطريق .

ولقد كان تصرف عمر حيال زوجته حينما رغبت فى التدخل بينه وبين بعض عماله على هذا النحو تصرفا يدل على عبقرية سياسية فذة ، ودراية فريدة بإدارة شئون الحكم ، لأنه لو تساهل فى هذا التصرف ، وسمح لزوجاته بالتدخل فى شئون الإدارة لتسلطن على الحكم ، وأصبحت سنة يتخذها الخلفاء بعده ،

---

(١) مناقب عمر : ١٢١ .

ولوجدت الرعية فى زوجات الخليفة بابا يدخل منه كل من يريد الدخول على خليفة فى أمر مخالف لنظام الحكم .

ولن يكون ذلك لكل الناس ، بل سيكون لهؤلاء الذين بينهم وبين أزواج الخليفة صلة ما ، ويحرم منه بقية الناس ، ومن هنا توجد المحسوبيات .

ومن هنا تكثر المجاملات ، وتتحول الخلافة إلى ملك عضوض ، تتحكم فيه النساء ، ويذل فيه الرجال ، ويحق فيهم قول الرسول ﷺ : « لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة »[1] .

لكل هذه الاحتمالات ، وما تؤول إليه من المفاسد ، وما تجره على الأمة من الويلات رفض عمر أن تتدخل زوجته فى شئون الدولة ، ولو كان على سبيل الإصلاح .

وموقف آخر من عمر – رضى الله عنه – يوضح لنا كيف كان يتقبل النقد ويصغى للنصح ، بل كيف كان يسر ويفرح عندما يشعر بأن فى رعيته من يستطيع تقويمه إذا مال أو انحرف .

يروى أنه صعد المنبر يوما وقال : يا معشر المسلمين ، ما تقولون لو ملت برأسى إلى الدنيا كذا (وميل رأسه) .

فقام إليه رجل فقال : أجل ، نقول بالسيف كذا (وأشار إلى القطع) .

فقال عمر : إياى تعنى بقولك ؟

قال : نعم ، إياك أعنى بقولى .

فقال عمر : رحمك الله ، الحمد لله الذى جعل فى رعيتى من إذا تعوجت قومنى[2] .

إن هذه الأحداث الكثيرة فى حياة عمر لم تكن تمثيلا يرضى به العامة من الناس ، ولم تكن خديعة يختبر بها المعارضين ليزج بهم فى غيابات السجون ،

---

(١) رواه البخارى والترمذى والنسائى .

(٢) أخبار عمر : ص ٣٣٢ .

ولكنها كانت تمثل شعوره بالمسئولية ، وتجسم خوفه من سؤال الله – عز وجل – له عن هذا الانحراف ، فقصد أن يقوم فى الدنيا حتى إذا ما عرض على الله كان مقوما لا يحتاج إلى تقويم .

وكان عمر يشعر أن إظهار انحرافه فى الدنيا ولو كان فيه كشف لبعض نواحى الضعف فى نفسه فهو خير من أن تنكشف تلك الجوانب عند الله وعلى رءوس الأشهاد ، لأن انكشافها فى الدنيا سيمكنه من معالجتها حتى يقبل على الله وقد تخلص منها ، أما إذا سترت فى الدنيا وانكشف بين يدى الله – تبارك وتعالى – فأنى له بمعالجتها ، وكيف يمكنه تبريرها ؟

إن هذا الأمر لا يدركه الذين يسترون ضعفهم بشدة الحكم ويوارون عوراتهم خلف أبهته ، لأن هؤلاء نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، فظنوا أن الحكام أرفع من أن ينتقدوا ، وأن منزلتهم ينبغى أن تكون فوق قدرة النقاد ، فلا يجوز لهؤلاء إلا إظهار محاسنهم ، والثناء عليهم بالحق وبالباطل .

أما الذين أدركوا عظم التبعة ، وأحسوا بضخامة المسئولية ، فهم يرون أن طبيعة البشر الضعف ، وأن من صفاته الخطأ ، فليس عليهم جناح أن يخطئوا ماداموا يستدركون هذا الخطأ ويعملون على إصلاحه ، ولأن يخطئوا فى هذه الحياة ثم يجدوا من يبصرهم بخطئهم ويردهم إلى رشدهم ، خير لهم من أن يداهنوا فى الدنيا ويبرر لهم خطؤهم بما يهونه على نفوسهم ، فإذا ما انقلبوا إلى ربهم ساءت العاقبة والتمسوا المخرج ، فلا يجدون إليه سبيلا .

ولقد كان عمر كما كان الخلفاء كلهم من هذا الطراز ، وهو ولا شك طراز فريد لم تعرفه الدنيا قبل أن تعرف الإسلام .

فالإسلام هو الذى ربى هؤلاء الرجال ، وجعل منهم نماذج يحتذى بها ، فكان كل منهم ينشد رعيته أن تبصره بخطئه وأن ترده إلى صوابه ، لأنهم يعلمون أن العظماء لا يضرهم خطأ يقع منهم ، وإنما الذى يعيبهم حقا هو إصرارهم على الخطأ بعد أن يتبينوه .

نعم ، إن العظماء لا يضرهم الخطأ ، لأن أخطاءهم معدودة ، وإنهم ليسرهم أن يتعرفوا عليها ليتخلصوا منها ، وترتفع منزلتهم فى سلم الكمال الذى لا يمكن أن يتم إلا لله وحده ، وأما الضعفاء ، وأما الذين لا يأنسون فى أنفسهم القدرة على مواجهة الأخطاء ، فهم الذين يلجئون إلى الإرهاب لستر ضعفهم ، وتخويف الناس من الكلام فى أخطائهم .

إن عمر – رضى الله عنه – مهما أخطأ فصوابه أكثر من خطئه ، وحسناته أضعاف سيئاته ، ولهذا لم يكن ليضره أن يقع منه خطأ ، أو تكون منه زلة ، ولهذا أيضا كان يسره أن يعرف خطأه ليتلافاه مادامت لديه الفرصة لتلافيه ، وقديما قال الشاعر :

كفى المرء نبلا أن تعد مثالبه

لم يكن عمر – رضى الله عنه – وحده هو الذى يفعل ذلك ، لم يكن هو الذى يحترم آراء الناس وحده ، ولم يكن هو الذى يتقبل نقد الناقدين وحده ، بل كان الخلفاء كلهم على هذا الوضع ، لأن ذلك ليس من ابتكار عمر فى الإسلام ، بل هو أمر أقره الرسول ﷺ وعامل به أصحابه من قبل عمر كما سأبينه بعد .

على أن هذا الأمر لو كان من ابتكار عمر لكان جديرا بأن يتابع عليه لأنها سنة حسنة ، « ومن سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينتقص من أجورهم شىء »

لقد كان عثمان بن عفان – رضى الله عنه – يحج بالمسلمين ، ويكتب لعماله أن يوافوه فى الموسم ، ويطلب منهم أن يحضروا معهم كل من له شكوى ، سواء كانت من الوالى أم من غيره ، كما كان يقول للناس : « إنه مع الضعيف على القوى مادام مظلوما »(٢) .

ويروى الطبرى – رحمه الله – أن عثمان كتب للناس فى الأمصار أن ائتمروا بالمعروف ، وتناهوا عن المنكر ، ولا يذل المؤمن نفسه ، فإنى مع الضعيف

---

(١) من حديث طويل رواه مسلم .
(٢) الكامل لابن الأثير : ١٨١/٣

على القوى مادام مظلوما إن شاء الله[1] .

فعثمان – رضى الله عنه – يشجع المسلمين على أن يطلبوا حقوقهم ولو كانت عند الأمراء والولاة ، ويطلب منهم أن يكونوا أعزة أقوياء لا يهنوا أمام الظلمة ، ولا يضعفوا أمام قوة السلطان .

ويروى ابن كثير – رحمه الله – أن عثمان – رضى الله عنه – كان يلزم عماله بحضور الموسم كل عام ، ويكتب للرعايا : من كانت له عند أحد منهم مظلمة فليوافِ إلى الموسم فإنى آخذ له حقه من عاملة[2] .

ولما صلى عثمان بن عفان – رضى الله عنه – وهو أمير المؤمنين الظهر بمنى أربع ركعات عتب عليه بعض من حضر هذه الصلاة فلم يضق عثمان بما وجه إليه من النقد بل تقبله بصدر رحب .

وكذلك انتقده كثير من الناس فى أمور كإحراق المصاحف وجمع الناس على مصحف واحد ، وإيثاره بنى أمية على غيرهم ، وإسرافه فى أموال المسلمين ، ونفيه أبا ذر عن المدينة ، وضربه عمار بن ياسر حتى فتقه وغير ذلك كثير مما اتهم به أمير المؤمنين عثمان – رضى الله عنه – فلم يضجر ، ولم يعاقب ، بل تلقى ذلك بسلامة صدر ، وقلب رحيم ، ورد علماء المسلمين على هذه الشبه بما يبطلها ، ويفسد على أصحابها ما أرادوه من ورائها .

فقد رد العسكرى على شبه المتهمين للخليفة فى كتابه الأوائل ، وكذلك ردها شيخ الإسلام ابن تيمية فى كتابه منهاج السنة ، كما ردها الديار البكرى فى كتابه تاريخ الخميس ، وردها كذلك ابن العربى المالكى فى كتابه العواصم من القواصم حتى ثبت من كل ذلك براءة أمير المؤمنين عثمان – رضى الله عنه وأرضاه – .

لقد كان أمير المؤمنين قادرا على معاقبة الذين خرجوا عليه ، كما كان

---

(١) الطبرى : ٣٩٧/٤ .

(٢) ابن كثير : ٢١٩/٧ .

يستطيع أن يؤدبهم ويردعهم بما يسكتهم ، ولكنه لم يفعل ذلك خوفا من أن يسد على المسلمين الباب الذى فتحه سلفه – عمر بن الخطاب – فيعوق المسلمين عن إبداء رأيهم فيسكتون ، وقد يكون سكوتهم عن حق يجب أن يبدوا فيه بآرائهم ، كما قد يكون سكوتهم ثغرة ينفذ منها الحاكم إلى ما يريد دون أن يجد من يعارضه إذا كان مخطئا .

ومن أشهر ما روى عن عثمان – رضى الله عنه – فى ذلك ما روى من أن رجلين من أهل الكوفة عزما على قتل أمير المؤمنين عثمان ، وتوجها نحو المدينة لذلك فلما وصلا نكل أحدهما و رجع دون أن يشترك فى الجريمة ، وأما الآخر وهو كميل بن زياد فإنه قعد لأمير المؤمنين ينتظر خروجه لينفذ ما عزم عليه .

وخرج أمير المؤمنين فوجد كميلا جالسا يرصده ، فوجأه فى وجهه – أى ضربه – فوقع على أسته – أى مقعده – .

فقال كميل : أوجعتنى يا أمير المؤمنين .

قال عثمان : أولست بفاتك ؟

قال : لا والله الذى لا إله إلا هو .

فاجتمع الناس ، وقالوا : نفتشه يا أمير المؤمنين .

فقال : لا ، قد رزق الله العافية ، ولا أشتهى أن أطلع منه على غير ما قال .

ثم قال : إن كان كما قلت يا كميل فاقتد منى ، والله ما حسبتك إلا تريدنى ، و قال : إن كنت صادقا فأجزل الله ، وإن كنت كاذبا فأذلّ الله .

وقعد له على قدميه ، وقال : دُونك قال : قد تركت[1] .

ونحن حين نستعرض هذه الحادثة نرى فيها أن أمير المؤمنين عثمان – رضى الله عنه – يصدق الرجل فيما قال ، ولا يتهمه بالكذب رغم الريبة التى تحيط بموقفه ، ولما عرض عليه من حضر أن يفتشوه رفض ذلك ، وقال : لا أشتهى أن أطلع منه على غير ما قال

---

(١) الطبرى : ٤٠٣/٤ .

ولم يكتف أمير المؤمنين بتبرئته وعدم البحث عما جاء من أجله ، ولكنه رضى الله عنه – اعتذر له عما كان وقعد له ليقتاد منه .

قد يقول قائل : إن هذا الموقف من أمير المؤمنين يتنافى مع الحنكة السياسية التى ينبغى أن تكون من أبرز صفات الحكام وأشهرها ، وقد كان الواجب أن يأمر عثمان بتفتيشه كما عرض عيه الحاضرون ، فإن كان جاء لشر تخلص منه ، وإن لم يكن كذلك فليس عليه شيء ، لأن ذلك من حق الحاكم وسلطته على رعيته .

نعم ، لقد كان من حق أمير المؤمنين أن يتخذ كل الإجراءات اللازمة لكفالة الأمن ، وردع المعتدين ومن تسول لهم أنفسهم العبث ، ولكن أمير المؤمنين أخذ الرجل بظاهره ، وبخاصة وأنه حلف بالله الذى لا إله غيره ، وأن عثمان لم يبلغه عنه ما يريبه ، والإسلام قد علّم المسلمين أن يأخذوا الناس بظواهرهم ويتركوا لله – عز وجل – سرائرهم .

فعثمان – رضى الله عنه – قد صدق كلام الرجل ، ولم يرد فضحه والبحث عما جاء من أجله ، ولكن الرجل استغل ذلك الموقف النبيل ، وراح يدبر لقتل الخليفة وما ذنب الخليفة إذا كان المجرمون لا يقابلون الحسنة بالحسنة ؟ وما جريرة الخليفة ، وقد صدق يمين الله وهو لم يتصور أن رجلا مسلما يحلف بها كذبا ؟؟

لا شك أن الخليفة قد عامل الرجل بالأخلاق الإسلامية الأصيلة ، وأما الرجل فقد رد بأخلاق الجاهلية الكاذبة الغادرة ، وكل إناء بالذى فيه ينضح .

وكان الخلفاء – رضوان الله عليهم – يوصون عمالهم وأمراء الجيوش باحترام آراء الناس ، وعدم تحقيرها ، وأخذها بعين الاعتبار حتى يكون ذلك مشجعا للمسلمين ، وحافزا لهم على إبداء آرائهم ، فرب رأى من مغمور يكون فيه نجاة الجيش ، وانتصار المسلمين .

ففى غزوة نهاوند ، وقد تحصنت جيوش الفرس بأسوار المدينة وأحاطوها بحسك الحديد – الأسلاك الشائكة – فكانوا يخرجون كلما أرادوا ووجدوا فى الخروج مغنما من فرج تركوها لذلك ، واشتد الأمر على المسلمين ، وخافوا أن

تطول مدة الحصار ، فيدب الوهن فى صفوف المسلمين ، وتكون العاقبة غير حميدة ، حينئذ استشار قائد الجيش النعمان بن مقرن – رضى الله عنه – الناس ، وعرض عليهم الموقف بحذافيره ، وقال : فما الرأى الذى نستخرجهم به إلى المنابذة ، وترك التطويل ؟

وأخذ كل من حضر يبدى رأيه ، فقال بعضهم : شدد الحصار عليهم فالتحصن عليهم أشد من المطاولة عليكم .

وقال عمرو بن معدى كرب : ناهدهم ، وكاثرهم ، ولا تخفهم .

فرد الحاضرون هذا الرأى وقالوا : إنما تناطح بنا الجدران ، والجدران أعوان لهم علينا .

وتكلم طليحة بن خويلد فقال : أرى أن تبعث إليهم فرقة من جيش المسلمين يرمونهم بالسهام ، فعندئذ ينظر العدو فيراهم قلة ، فيخرجون لمقاتلتهم ، ويكون الجيش مختفيا عن أعينهم ، فإذا خرجوا لقتالهم تظاهروا بالصمود ثم التقهقر فيتبعهم القوم ، ولم يشكوا فى هزيمتهم ، وتظل الفرقة فى صمودها وتقهقرها حتى يلجئوا إلينا ، وعندئذ نبرز لهم فنقاتلهم ، وينصرنا الله عليهم .

وأعجب الحاضرون برأى طليحة ، واستراحوا له لأنه الوسيلة التى ستنقذهم من مطاولة العدو وتحصنه .

وأوكل النعمان تنفيذ الخطة إلى القعقاع بن عمرو ، ونفذها القعقاع بكل دقة وتحقق بذلك النصر للمسلمين على الفرس ، وسمى فتح نهاوند فتح الفتوح .

كان هذا هو الطابع العام فى الدولة الإسلامية ، وقد تعلموه من الرسول ﷺ فإنه كان يستشير فى كل أحواله ، وكان يستمع لكل من يتكلم ويبدى رأيه ، وكان لا يحقر رأيا مهما كان ، فإن كان صوابا أخذ به ، وإلا سكت ، ففى غزوة بدر كان يقول : أشيروا على أيها الناس[1] .

فيتكلم الصحابة وهو يسمع منهم ، حتى إذا استقر الأمر على القتال ،

---

(١) فتح البارى : ٢٨٧/٧ .

ولم يكن هناك سبيل غيره ، سار بهم رسول الله ﷺ حتى وصل بدرا ونزل بالمسلمين عند أدنى ماء منها .

وهنا يروى لنا ابن إسحاق عن رجال من بنى سلمة أن الحباب بن المنذر بن الجموح لما رأى المنزل الذى نزله رسول الله والجيش كأنه لم يعجبه فقال : يا رسول الله ، أرأيت هذا المنزل ، أمنزلا أنزلكه الله ، ليس لنا أن نتقدمه ، ولا نتأخر عنه ، أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟

قال : بل هو الرأى والحرب والمكيدة .

فقال : يا رسول الله ، فإن هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس حتى تأتى أدنى ماء من القوم ، فننزله ، ثم نغوِّر ما وراءه من القلب ، ثم نبنى عليه حوضا فنملؤه ماء ، نقاتل القوم ، فنشرب ، ولا يشربون .

فقال ﷺ : لقد أشرت بالرأى[1] .

ونهض رسول الله ﷺ ومن معه من الناس ، فنزلوا حيث أشار الحباب .

هكذا كان ﷺ يعامل أصحابه ، يطلب منهم المشورة ، فيشيرون عليه بما يرونه ، وينظر فيه ﷺ ويقرر ما يراه صالحا بالنسبة للظروف التى يكون فيها المسلمون .

ونحن نلاحظ أن الرسول ﷺ لم يستحسن الرأى فقط ولكنه أمر بتنفيذه والنزول على مشورة الحباب ، وذلك حين نهض بالناس ونزل بهم عند أدنى ماء من القوم .

من هذه الأمثلة المتعددة نستخلص أن الإسلام كان حريصا على احترام آراء المسلمين ، وتقدير مشورتهم ، والعمل بها مادامت مناسبة ، ويمكن الاستفادة منها .

ولم يكن الإسلام ليحرص على هذا إلا لأنه يريد أن يستخرج طاقات رجاله ، ويفجر مواهبهم ، فرب مواهب معطلة لو اكتشف لجنت الأمة

---

(١) ابن هشام : ٦٢٠/١ .

من ورائها خيرا كثيرا ، ونحن لا نستطيع أن نقول إن كل المواهب التى عرفت فى هؤلاء الرجال الأفذاذ سواء كانت عسكرية أم سياسية أم اقتصادية ، وسواء كانت فى التنظيم والإدارة أم فى القضاء وشئون الحكم ، لا يستطيع أحد أن يدعى أن كل هذه الطاقات التى برزت فى الرعيل الأول من الصحابة لم تكن موجودة فيهم ، لأن هذه المواهب لا يمكن أن توجد فى الإنسان بعد عدمها ، وإنما كانت موجودة فى طبيعتهم كامنة فى جبلتهم ، فلما دخلوا الإسلام وجدوا الفرصة التى يعبرون بها عن طاقاتهم ، وما حباهم الله به من المواهب فبرزت تلك العبقريات .

ولقد أفسح الإسلام لهذه المواهب فنمت ، وأخذت مكانتها الطبيعية فى حياة هؤلاء الرجال – رضوان الله عليهم أجمعين – ولولا الفرصة التى منحها لهم الإسلام لعاشوا وماتوا على ما كانوا عليه قبل الإسلام .

إن أبا بكر – رضى الله عنه – لم يكن قبل الإسلام سوى تاجر يبيع ويشترى فى الأسواق ، ولم يكن أحد ممن يعرفه حق المعرفة ليتصور أنه يمكن أن يكون حاكما عبقريا يدير وهو فى المدينة المنورة شئون الجزيرة العربية كلها ، بل لم يكن أحد قط ليخطر بباله أن أبا بكر ذلك الرجل الهين اللين ، السهل السمح يستطيع أن يقف هذا الموقف البطولى من حروب الردة ، وأن يصر على حرب العرب كلهم وحده ما استمسك السيف بيده .

ولم يكن عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – فى الجاهلية إلا راعى غنم لأبيه ثم احترف التجارة يتعامل مع الناس ككل التجار ، ولو عرض عمر فى جاهليته على أزكى علماء النفس والاجتماع لما استطاع أحد منهم أن يتكهن بأن عمر سيكون له ذلك الشأن الرفيع ، وتلك العبقرية التى تفوق بها على أعظم الحكام فى زمانه ، بل إنه تعدى بها زمانه ، وتجاوز بها جزيرة العرب كلها .

وغير أبى بكر وعمر كثير من الصحابة الذين ظهرت عبقريتهم ، وتفتقت مواهبهم بمجرد أن أفسح لهم الإسلام الطريق ، ومنحهم حرية المناقشة والنقد ، وأوجب عليهم التناصح والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

والإسلام يريد من وراء منح المسلمين حرية النقد والمناقشة أن يربى جيلا عزيزاً كريما يأبى الضيم ، ويرفض الذل ، ويواجه الباطل فى إباء وشمم ، لأن المجتمع الذى ينشأ على ذلك لا يمكن أن يستعبد ، ولا يستطيع أحد مهما كان أن يستبد فيه أو يتجبر .

ولهذا لما رأى عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – شابا منكسا رأسه قال له : يا هذا ارفع رأسك ، فإن الخشوع لا يزيد على ما فى القلب ، فمن أظهر لنا خشوعا فوق ما فى القلب ، فإنما أظهر للناس نفاقا على نفاق[1] .

وروى أنه رأى شابا يسير فى الطريق يتماوت فطعنه فى صدره وقال : لا تميتوا علينا ديننا أماتكم الله .

وفى هذا المقام يروى حديث رسول الله ﷺ : « إذا رأيت أمتى الظالم أن تقول له : أنت ظالم ، فقد تودع منهم »[2] .

(١) مناقب عمر : ص ١٩٨ .

(٢) مختصر منهاج القاصدين : ص ١٢٣ .